Thi Qar Arts Journal

ISSN Print: 2073-6584 | ISSN Online: 2709-796X

vol 36 No.1 Dec. 2021

رواية "مدونات الضمير أنا"، لـ . "سعدون محسن الضمد".

مقاربة نقدية في المتن والهامش

م. د علي حسن هذيلي

مدرس على ملاك مديرية تربية ميسان

abualqassimali67@gmail.com

٠٧٧٠٩٠٤٧٧٥٨

The novel of (Blogs of the conscience –I am) by Sadoon Muhsin Dhamad. A critical approach in text and footnotes.

Key words: The conscience I am\ Revealing secrets\ Text and footnote\ Thresholds

:Abstract

We mean about the footnotes the thresholds that preceded or appended the seven blogs (chapters), which formed the text of ((addamad)) novel, which means what was written on the first and last covers, and what was illustrated in these memories about the stages that the hero passed through, in spite of that they were more or less mental stages nearer to the edge of hallucination than to the reality or fantasy. This was confirmed by dhamad himself when he said that his novel neither a fantasy nor a reality. We introduce this to can read the text by footnotes or the contrast, starting from the strong relation between them. So, the article consisted of introduction and to researches, we talked in the introduction about the relation of the title with the entitled. For the blogs of conscience –I am– mean that the novel would be like Biography that the writer talks of himself in it. In the first research we use one of this blogs to prove

Thi Qar Arts Journal

ISSN Print: 2073-6584 | ISSN Online: 2709-796X

vol 36 No.1 Dec. 2021

that it was truly like hallucination and never approach the narration at all. In the second research we imagined a dialogue between the great novelists and critics about dhamad novel and his announcements which dissented the normality like his saying that his novel is neither a reality nor a fantasy. The conclusion was including the most important result that the non-novelists became novelists may be because of .democracy which opened the door to the all

الكلمات المفتاحية: الضمير أنا، هتك الاسرار، المتن والهامش، العتبات.

(ملخص البحث)

نقصد بالهامش، هنا، العتبات التي سبقت أو لحقت المدونات (الفصول) السبعة التي شكلت متن رواية "الضمد"، أي ما دُوِّنَ على الغلافين الأول والأخير، مع ما جاء في تلك المدونات من ذكريات تمثل المراحل التي مر بها البطل، وإنْ كانت مراحل ذهنية، هي أقرب إلى الهذيان منها إلى رواية أحداث خيالية أو واقعية. وهذا ما أكده "الضمد" نفسه عندما ذهب إلى أن روايته ليست خيالاً ولا واقعاً! فعلنا ذلك لأجل قراءة المتن بالهامش أو العكس، انطلاقا من العلاقة الوثيقة بينهما، لذا فقد تكوّن البحث من مقدمة ومبحثين. تحدثنا في المقدمة عن علاقة العنوان بالمعنون، فمدونات الضمير أنا تعني أنَّ الرواية ستكون اشبه بالسيرة التي يتحدث فيها المرء عن نفسه. أما المبحث الاول، فقد استشهدنا فيه بإحدى تلك المدونات لنثبت انها إلى الهذيان والثرثرة اقرب منها إلى السرد الذاتي. أما المبحث الثاني، فقد تخيلناه حواراً بين كبار الروائيين والنقاد حول تصريحاته الضمد الخطيرة التي خالف بها المألوف من قبيل أن روايته لا خيال ولا واقع. أما الخاتمة فقد تضمنت النتيجة الأهم، وهي أنَّ غير الروائيين أصبحوا روائيين، ربما بسبب "الديمقراطية" التي فتحت الأبواب للجميع !

مقدمة

ثمة قول مألوف ومتداول، يدّعي أن "الكتاب يُعْرَف من عنوانه". وهو ادعاء يكاد يكون بديهياً بحكم ما هو متداول ومألوف، ولنا أنْ نضربَ الكثير من الأمثلة التي تثبت صحة هذه البداهة، لا سيما إذا ما كانت الأمثلة المضروبة دراسات علمية، أو تاريخية، أو اجتماعية، أو اقتصادية، أو سياسية، بل حتى نقدية. ولكن عندما تكون الأمثلة روايات أو قصائد، فإنَّ العلاقة بين العنوان والمعنون لن تكون بتلك القوة، بل قد تبلغ درجة الضعف

Thi Qar Arts Journal

ISSN Print: 2073-6584 | ISSN Online: 2709-796X

vol 36 No.1 Dec. 2021

غايتها القصوى، لا سيما في الشعر الحديث الذي رفع شعار الغموض، والابهام، وعدم التواصل، سواء بين كلماته وجمله وعباراته، أو بينه وبين القارئ. والحق إنَّ رفع الكلفة بين الكلمات، لا بد أنْ يكون مصحوباً برفعها بين النص والقارئ، وهذا ما يمكن أنْ يحدث في بعض الدراسات النقدية، ولنا في عنوان "دير الملاك" للدكتور محسن أطيمش، مثالاً جيداً، فربما هو يشير إلى قصيدة، أو قصة، ولكن العنوان الفرعي له سيزيل ذلك الالتباس عندما يحدد موضوعته بالقول: "**دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر**"(١)، وهو عنوان سيحيل إلى المضمون/ المتن بدقة ومباشرة. من هنا، فإنَّ **العتبات إنما تعبر عن موقف ما، وتضطلع بدور أساسي في ولوج القارئ إلى عالم النص، وتوغله التدريجي فيه، لأنها تحدد ملامح النص، وتقدم عنه إشارات أسلوبية ودلالية أولية، وتبني كوناً تخييليا محتملا**(٢).

إنَّ قراءة العتبات تفترض، مسبقاً، أن يكون العنوان، وكذلك العتبات الأخرى، كلوحة الغلاف، وتحديد الجنس، والكلمات التي تُدَون على الغلاف الأخير، لا سيما إذا كانت للمؤلف، والمقتبسات التي تسبق المتن أو تتخلله.. تفترض أنْ يكون ذا علاقة بالمتن، لأنَّ افتراض العكس يعني أنَّ قراءة العتبات ستكون بلا جدوى. ولأنها تفترض علاقة ما، فإنّها بحاجة إلى ممارسة تأويلية حفرية مع عنوانات الروايات والقصائد، وكذلك الدراسات النقدية التي تنحو هذا المنحى. وهذا ما نجده في عنوانات كتب الدكتور "حاتم الصكر" مثلاً: الأصابع في موقد الشعر/ مرايا نرسيس/ البئر والعسل/ ترويض النص... هذا على فرض أنه ليس ثمة عنوان فرعي، في حين لا نحتاج لتلك الممارسة التأويلية مع الدراسات الفكرية، أو العلمية، أو التاريخية، أو الدينية، لأن الكتاب، حينئذ، سيُعْرَف من عنوانه.

ولأن النص بناء "**فلا يمكننا الانتقال بين فضاءاته المختلفة دون المرور على عتباته**"(٣) لأن الذي لا يعرف طبيعة العتبات قد يتعثر بها، وربما أخفق في المرور إلى متنها، ولكي تتجنب قراءتنا هذه النتيجة، فهي تنظر إلى العتبات، لا بوصفها عرضاً زائلاً، بل بوصفها ذاتا مشاركة "**له خصائصه الشكلية، ووظائفه الدلالية التي تمكنه من إدارة جدل خلاق بينه وبين أبنية أخرى**"(٤). لذا فإنَّ حدود النص، أي نص، ليست واضحة بما فيه الكفاية، "**فخلف العنوان والأسطر الأولى، والكلمات الأخيرة، وخلف بنيته الداخلية، وشكله الذي يضفي عليه**

Thi Qar Arts Journal

ISSN Print: 2073-6584 | ISSN Online: 2709-796X

vol 36 No.1 Dec. 2021

نوعا من الاستقلالية والتميز، ثمة منظومة من الاحالات إلى كتب، ونصوص، وجمل أخرى، مما يجعله ككتاب، مجرد عقدة داخل شبكة، أو مجرد جزء من كل"(٥).

تحاول هذه القراءة الدخول إلى (رواية) الضمد- مدونات الضمير أنا- عبر فحص المتن والهامش. وقد صنف المؤلف عمله هذا في عداد الروايات، وهذا يعني أنه أستوعب مواصفات النوع، عناصره وتقنياته وطرائقه، فصنفه على هذا الأساس، وعملية التصنيف هذه مهمة، لأنها ستحيل الاثنين- المؤلف والقارئ- إلى عقد ضمني، ساهم في كتابته الروائيون والنقاد، وربما جرى عليه بعض التغيير، لأن الأنواع الأدبية تأبى الثبات، والأصح أنْ نقول: إنَّ فيها الثابت وفيها المتغير، فالثابت يحافظ على النوع، والمتغير يجدده.

"مدونات الضمير أنا" عنوان يشير إلى المؤلف، لا إلى غيره، كما أراد هو أنْ يوهمنا، عندما ادّعى أنَّ هذه (الأنا) **تمثل الجميع، جميع من في الأرض، وكامل من في السماء شاخص فيها**(٦)، ثم تواضع بادعائه، ليعدها معادلاً موضوعياً للعراق، حيث **صورته الشخصية عبارة عن أجزاء وبقايا وشظايا ورقم طينية وزقورات وأهوار ومشاحيف وحروب وآلهة ودماء ونساء وملائكة** (٧). ولعل لوحة الغلاف، التي رسمت بالأبيض والاسود، اختصرت علينا هذه الدلالة برموزها وعلاماتها وايقوناتها، إمعانا في التأكيد بأنَّ "سعدون محسن الضمد" إنما يمثل العراق، بل جميع من في الأرض، وكامل من في السماء!

أما الذي قرأ كتاب "هتك الأسرار"، فإنه سيذهب إلى أنَّ الضمير (أنا) إنْ هو إلا المؤلف نفسه، فهو يعيد كتابة تجربته نفسها، ولكن بنبرة خافتة، هذه المرة، إذا ما تذكرنا علو نبرته هناك. من هنا، فإنَّ الموازنة بين رواية "الضمد" وكتابه ستكون ممكنة، لا سيما أنهما يستبطنان التجربة نفسها، وعذرنا الأكيد أنَّ "الضمد" خاف من تشويش التسلسل اللازم لإيصال تجربته، فكتبها كتاباً، ثم هو لم يَخَفْ من هذا التشويش- لأسباب لا نعرفها- فكتبها رواية! يقول الضمد: "**هناك تفاصيل حياة هائلة أشعر بأنني أغفلتها، والسبب، كما أحسب، أنَّ التعبير عن هذه المفردات بشكل تفصيلي يحتاج إلى عمل روائي، ولكن العمل الروائي، وفي لحظة احتفاظه بهذه التفاصيل، يهدد، من جهة أخرى، بتشويش التسلسل اللازم الاحتفاظ به لإيصال الصورة العامة عن رحلة التحول، وأهم الأفكار التي تغيرت فيها**" (٨).

Thi Qar Arts Journal

ISSN Print: 2073-6584 | ISSN Online: 2709-796X

vol 36 No.1 Dec. 2021

إنَّ أي قارئ بسيط للأعمال الروائية، يستطيع أنْ يكتشف سوء فهم "الضمد" لطبيعة العمل الروائي، وإدراكه السيء لوظيفة الزمن، لأن الرواية، بوصفها رواية، لا تشوش الزمن، بقدر ما تعيد تخليقه، عندما يتدخل الخيال، فيعيد ترتيب الزمن الواقعي الذي يسير بطريقة رتيبة. ما يفعله الخيال هو تشويش الرتابة لأجل المعنى، والتلاعب بالزمن لأجل الواقعة، وإذا شاء الروائي ألا يفعل، فله ذلك، بشرط أنْ يعرف الفرق الفني والإبداعي بين الزمن الكرونولوجي (المتسلسل)، والزمن السايكولوجي (النفسي)، لأن هناك قانوناً لا استثناء فيه "**وهو أنَّ زمن الروايات هو زمن مشيد، انطلاقا من الزمن النفسي... ليتوصل، بهذه الطريقة، إلى جعل روايته تنأى عن العالم الواقعي، وتختلف عنه**" [٩].

إذن يمكن أنْ نأخذ ملخصاً عن رواية "الضمد" من كتابه "هتك الأسرار"، ثم نتصفح الرواية نفسها: تتلخص تجربة "الضمد" في اكتشافه بأن النبوة وهم، والوحي كذبة، والدين صناعة بشرية. وهو قبل أنْ يعلن هذا (الاكتشاف) القديم جداً! كان قد خاض تجربة (صوفية) اثبتت له ذلك، ولأنه يريد أنْ يوقظ النائمين من سباتهم، فقد دوّن تجربته بكتابٍ هَتَكَ فيه أسرار الله والوحي والنبوة![١٠] [١]، وهكذا أصبح العالم من دون أسرار! ولم يبقَ على الضمد سوى أن يفتح ارشيف هذه الأسرار عبر سيرته الذاتية بطريقة المذكرات.

المبحث الأول

[١] () ينظر: "هتك الأسرار": ص١٥، ٣٦، ٦١، ٦٥، ٨١، ٨٣، ١٠٠، ١١٤، ١٣٧، ١٦٦.

Thi Qar Arts Journal

ISSN Print: 2073-6584 | ISSN Online: 2709-796X

vol 36 No.1 Dec. 2021

تضمنت رواية "مدونات الضمير أنا" مقدمتين، وسبع مدونات بهوامشها، تتحدث المقدمة الأولى عن راوٍ، يبحث عن مخطوطة ضائعة، هي المدونات التي تمثل مذكراته الشخصية، وعندما يجدها يفكر– في المقدمة الثانية– بوضع هوامش توضح تلك المدونات، وتحشو فراغاتها، وتتوسع في تفاصيلها، طالما أنها مدونات مكتوبة بلغة سريالية غامضة ومبهمة! واللغة المبهمة تحتاج إلى قارئ مبهم، كانت التفكيكية قد بشرت به، واستطاعت أنْ تحققه، بدءاً من جاك دريدا، مروراً ببول دي مان، وليس انتهاء بعلي حرب، أو ما يمكن الاصطلاح عليه بـ "ذرية دريدا"، فظهر بعض الكُتّاب الذين **يؤمنون بانعدام العلاقة بين الدال والمدلول**(١١)، لا على مستوى الوضع، بل على مستوى الاستخدام. **وقد أصبحت هذه الرؤية قضية قبلية، بالنسبة لهم**(١٢)، لا يمكن النقاش فيها، ولا مراجعتها!

أما المدونات السبع فهي: مدونة الضمير (أنا)، مدونة الطفولة، مدونة الماضي السحيق، مدونة النبوة، مدونة الكاتب، مدونة الموت، وأخيراً مدونة الخيال. مدونات يتداخل فيها الفلسفي والديني والاسطوري، أما الاجتماعي والثقافي والواقعي، فليس له حضور، ما يعني أننا ازاء نص يسعى على تفكيك تلك العلاقة، من دون أنْ يهتم بمجريات الواقع من حوله، عبر تداعيات، أو قل: هذيانات من تلك التي كثيراً ما قرأناها في مدونات نيتشه، وفولتير، وادونيس من قبيل: "**القضية بالنسبة لي، قضية إيمان، أنا أؤمن بأن الإنسان ليس أكثر من كائن آلي. دائما أقول: على الكائن الذي يدخل الحياة سحباً من رأسه، أنْ يعترف بأنه دمية فقط وفقط. منذ اللحظة الأولى، والإنسان يفتح عينيه على عالم من الحتم التام، فهل يملك أن يغير؟... هكذا وبطريقة ما، أشعر أنَّ الأحداث تحدث رغماً مني، وأنني لا أشكل إلا دمية بائسة، في كون مترامي الأطراف، وزمن لا ينتهي... وهكذا، أجد أنَّ حكايتي قد سردت، وأنْ حكواتيا لعينا يدس بأذني جملة أحداثها، حكواتياً كريهاً في مقهى رطب ومعتم وبارد، يلوك كلماته بفم أدرد، ولسان جاف ودبق، يعبث بجرس الألفاظ، ويهتك، من ثم، موسيقى حياتي... كيف يتسنى لذلك العجوز المنحرف والتافه أنْ يلعب بمصيري ؟**" (١٣).

وهكذا يستعيد الضمد (سرديته) التي فصّلها في كتابه "هتك الأسرار" بلغة مباشرة، يستعديها، هذه المرة، بلغة، هو يظن، أنّها غير مباشرة، ليمرر ما يستطيع تمريره، عبر رؤية دوغمائية لا ترى سوى ما بين عينيها،

Thi Qar Arts Journal

ISSN Print: 2073-6584 | ISSN Online: 2709-796X

vol 36 No.1 Dec. 2021

من دون أنْ تتطلع إلى الما وراء، وتلك هي مشكلة أغلب الروائيين المتطفلين، وأولئك الذين لم يؤتوا نصيباً من الموهبة.

حسناً، لنترك تجديف الراوي بحق الذات الإلهية إلى مناسبة أخرى، ونحاكم التقنيات، وعناصر العمل الروائي: الغريب أنه ليس ثمة حدث في هذه (الرواية)، ولا حوار! فهي رواية مكتوبة من طرف واحد، بمعنى أنّها فاقدة لعنصرها البوليفوني[١٤]، الذي ينفتح على الآخر، ويشركه في اطروحتها، داخل الرواية أو خارجها، ربما لأن مؤلفها حصر نفسه بأيديولوجيته الضيقة، من دون أنْ ينتبه إلى أنَّ الرواية نوع أدبي بسعة الحياة، أما السرد فالمفروض أنّه جملٌ تتوالى، ويتبع بعضها بعضا، بطريق تصاعدي أو تنازلي، لا فرق، طالما أنَّ الطريقين يؤديان إلى نهاية. لم يبق للضمد سوى الوصف، ولكن ماذا سيصف؟ الأحداث، وليس ثمة أحداث! الشخصيات، وليس ثمة شخصيات! المكان، وليس ثمة مكان! الزمان، وكيف نتخيل زماناً من دون ذلك كله؟! وحتى لا نتجنى على هذا العمل الفارغ سنأخذ مدونة واحدة من مدونات الضمد، بمتنها وهامشها، لتكون شاهداً على بقية المدونات:

المدونة الخامسة، مدونة الكاتب:

متن المدونة: **الكتابة والخلق كلاهما مجد.. مجد مترهل ومريض وعفن.. عن الخلق تنهمر الوجودات، كما تنهمر دموع عاهر تقيأت للتو شهوتها.. الدموع تنهمر، والعاهر تتقيأ، والمشهد لا يكشف عن شيء، ويزداد بلادة وتكرارا مع مرور الوقت.. عن الكاتب تنهمر الأكاذيب، دائما منمقة، ومبتذلة، وسلطانية، الكاتب يضحك، بينما أقلامه صبيان مشردون على قارعة الأزمة، الكاتب يبكي، بينما تنكر الأوراق نبوته، وتكشف عن غير ملامحه التي كانت عليها لحظة تجديفه**[١٥].

هامش المدونة: **كاتب المدونات على ما يبدو من مجموعة أرثه المسطر في الورق، كان منهمكا بالهرب، كان ملكا من أولئك الغابرين المشغولين، دائما، بالبكاء والندم، البكاء بسبب الفشل، والندم على مرافقة الركب الذي ينتهي على طريق إلى المتاهة، لذلك بدا على مدوناته ملامح خطته التي أعدها للتنصل عن جميع ما دونه، ولذلك كان يبدو وبجلاء لكل من يمعن النظر بكلماته ومجموع مدوناته، بعض الخطوط التي يمكن من خلالها رسم كامل الملامح التي يمكن لها أنْ تكشفه، وعلى هذا الأساس ارتكزت فكرتي عن رسم صورة ذلك**

Thi Qar Arts Journal

ISSN Print: 2073-6584 | ISSN Online: 2709-796X

vol 36 No.1 Dec. 2021

الملك. فقط من أجل إثبات براءتي من هذه الأوراق، وجميع تلك المبعثرات المخيفة التي تزخر بها. لكن المفاجأة كانت مرعبة يوم وجدت أن جميع الصور التي نجحت برسمها من خلال خطوط رحلة ذلك الكاتب، كانت تؤدي، دون أي شك، إلى رسم صورة واحدة فقط، تلك هي صورتي أنا تحديداً. ومهما حاولت أنْ أغير من طريقة معالجتي لتلك الخطوط.. كانت النتيجة تظهر بنفس المستوى من الغرابة واللامعقولية، فتلك الخطوط.. تنتهي ومن جديد للإفشاء بسري، والدلالة علي، والتنديد بجرائمي. طبعا لم تكن الصور متشابهة تماما، أبدا، فبعضها كان لأشخاص يرتدون ملابس غريبة ومضحكة، وبعضهم كانوا محاربين، أو حمقى ومغفلين، أحدهم كان مجنونا بالعناية بشاربيه، آخر بدا أن ملامحه ليست إنسانية تماما... اللعنة.. أي غبار هذا الذي أدعي أنه غبش مضيء، أي دخان خانق هذا الذي أريد الاعتقاد بأنه نسيم بارد. اللعنة!! لقد كنت قبل قليل، وها أنا ذا أعترف، فالخطوط لم تكشف لي عن صورة ما، أبدا. لقد اقتربت كثيرا عندما ادعيت ذلك، وحيث أن الحقيقة لا يتم الكشف عنها بالافتراء، سأسرد الأمور، كما تجري في الواقع. أنا في الحقيقة... [١٦]

ويستمر الراوي بهذا الهذيان[١٧]، إلى ما لا نهاية، وهكذا الحال مع بقية المدونات التي يتحدث فيها الراوي مع أو عن نفسه حديثاً تكرارياً ومبهماً، ثم يعود ليشرح هذا الحديث المبهم بحديثٍ مبهمٍ، لا يفهمه إلا هو، وإنْ كنا نشك في ذلك، لأن علامة الفهم المفروض أنها تنطلق من القارئ، فالذات ليست مقياسا لفهم ما تقوله هي، لأن الإنسان، بطبعه، كائن اجتماعي، والاجتماع لا يكون إلا بلغة حوارية تواصلية، وإنْ كانت غير منطوقة. كما هو الحال في العلامات والايقونات التي تحقق ذلك التواصل بأسلوبها الرمزي.

وتستطيع من جانبك أنْ تعمم هذه الطريقة في السرد على بقية المدونات التي خلت من الأحداث، والشخصيات، والزمان، والمكان، والحوار، والوصف! ولم يبق سوى الهذيان، نعم الهذيان الذي اتخذ طابعاً سردياً متتابعاً ومملاً، ما يعني أنَّ وظيفة السرد، هنا، هي التي تبدلت، فبعد أنْ كان السرد رؤية للحياة، ومعاينة للوجود، وطريقة في التعبير، أصبح فرصة للهذيان والثرثرة، ولكنك تستطيع أنْ تستثني المقدمة التي يبحث فيها الراوي عن مخطوطة، لأنها طريقة مشوقة، تريد أنْ تهيئ القارئ للأحداث التي سترد في تلك المخطوطة، كما فعل، مثلاً، عبد الخالق الركابي في "الراووق"، وعلي بدر في "حارس التبغ"، ويوسف زيدان في "عزازيل"، وامبرتو إيكو في "اسم الوردة"، ولكن "الضمد" لم يستطع أنْ يفي بوعد المخطوطة، أو التشويق الذي ننتظره منها،

Thi Qar Arts Journal

ISSN Print: 2073-6584 | ISSN Online: 2709-796X

vol 36 No.1 Dec. 2021

لا سيما أنَّ هذا الوعد عادة ما يرتبط بماضٍ حافل وغني، يمكن أنْ يعاد في مخطوطة توثق له، وتستعيد أحداثه، أو تبدعها من جديد.

هذا ما يتعلق بالغلاف الأول، أما غلاف الرواية الأخير، فقد لخص فيه المؤلف طريقته أو رؤيته للنص، فهو يدّعي **أن "هذه المدونات لا خيال ولا واقع، لا حقيقة ولا وهم، لا صدق ولا كذب"**، لهذا فهو يتساءل: "**إذن، هل حدثت الوقائع التي أنوي سردها؟ أعتقد لا.. فهل هي من نسج خيالي؟ لا.. بالتأكيد لا. فما هي إذن؟**" [١٨]. وهكذا يستفز المؤلفُ القارئَ بسؤاله هذا ويتحداه، ولعله يحيله– من دون أنْ يشعر– إلى بيت "بشار بن برد" الذي قاله في خياط أعور: "**خاط لي عمرو قباء... ليت عينيه سواء**"[١٩]. فبناء على بيت بشار هذا، نحن لا ندري أهو يريد لعيني عمرو أنْ تكونا سليمتين أم عوراوين؟! (إذا صح التعبير طبعاً، لأن العَوَر صفة للعين الواحدة). ولكننا يمكن أنْ نرجح عبر قرائن حالية، ثم نقرر طبيعة هذا التمني: "ليت عينيه سواء". من جهة أخرى، فنحن لا نريد للقارئ أنْ يربط بين بيت "بشار" وبين "الضمد" بحجة أنَّ الثاني نفى أنْ تكون أحداث روايته وقعت، ونفى أنْ تكون من بنات خياله، نفى كونها حقيقةً، ونفى كونها وهماً، نفى كونها صدقاً، ونفى كونها كذباً، لأننا مؤمنون بأنَّ العمل الروائي يتحمل ذلك، كل ما هناك أنَّ الضمد لم (يفعله) في المتن، بل (قاله) في الهامش، ربما لأنه شعر بضرورته، وهذا ما سنناقشه في المبحث الثاني.

Thi Qar Arts Journal

ISSN Print: 2073-6584 | ISSN Online: 2709-796X

vol 36 No.1 Dec. 2021

المبحث الثاني

هنا سنتخيل اجتماعا لكبار الروائيين والنقاد، ونتحدث بلسانهم، لمناقشة تصريحات "الضمد" الخطيرة، فقد كتب "الضمد" رواية– على طريقة دريدا بَيْنَ بَيْن– لم تحدث في الواقع، وليست من بنات خياله! القضية محيرة حقاً، وفي هذا الجو المليء بالحيرة، والشك، والقلق، والوسواس الخناس ينبري الناقد النابه والحصيف "**سعيد بنكراد**"، ليقول:

– لعل "الضمد" خانه التعبير، وبدلا من أن يجيب بـ . (نعم) أجاب بـ . (لا)، لعله يريد أنْ يقول: "هل حدثت الوقائع التي أنوي سردها؟ أعتقد نعم. فهل هي من نسج خيالي؟ "نعم، بالتأكيد نعم". وليس في هذين القولين من تناقض، لأنه يجمع بين الخيال والواقع، كما يفعل أي روائي، على فرق بين الروائيين في تغليب أحدهما. وربما هو يتحدث عن (البرزخ)، ذلك العالم الذي يتوسط الخيال والواقع، فيربط بينهما من دون أنْ يكون أيا منهما، والروائي بحاجة إلى ذلك العالم الوسطي، لأنَّ خروجه منه، يعني أنَّ الرواية ستفقد أحد شرطيها، وعندئذ لا تستطيع أنْ تكون رواية، فالروائي هو ذلك المبدع الذي يتماهى في نصه الخيال والواقع، فيفقدان حدودهما المصطنعة. بتعبير أوضح، فنحن **إزاء عوالم ممكنة، لا يمكن النظر إليها بوصفها استعادة حرفية لوقائع "واقعية" مباشرة، بل هي بناء ثقافي، في المقام الأول، إنّها تُبنى في انفصال عن الواقع، واستنادا إليه في الوقت ذاته** [٢٠].

– **جمال الغيطاني:** ما الجديد في هذا الكلام سيد سعيد؟ أنت تعيد ما نعرفه وما اتفقنا عليه، والضمد يريد شيئا آخر بقوله: "**الحكاية التي أنا بصدد سردها الآن تنتمي لوعي لا يقال عنه أنه سليم، ولا يوصف بأنه مريض، لأنه وعي مفارق وغير منتم لعالم يخضع للقياس**"[٢١]، وكما تعلم سيد سعيد، فإنَّ عالمنا الروائي، وإنْ تداخل فيه الواقعي بالخيالي، والحقيقي بالحلمي، والطبيعي بالميتافيزيقي، والعجائبي بالغرائبي إلا أنّهُ عالم محكوم بقياس ما، منطق ما، المنطق الذي تختاره الرواية، وتسير عليه إلى النهاية، فعندما يختار الروائي "عالما ما" مسرحا لأحداث روايته، فيجب أنْ يفي بمتطلبات هذا العالم، كما يحدث في روايات الخيال العلمي، فإذا كانَ القمر هو مسرح الرواية، فإنَّ (الجاذبية) ستكون معدومة، أو ضعيفة جداً، وهذا الضعف لا بد أنْ ينعكس على علاقة الشخصيات ببعضها.

Thi Qar Arts Journal

ISSN Print: 2073-6584 | ISSN Online: 2709-796X

vol 36 No.1 Dec. 2021

– **حنا مينا:** نعم صحيح، لا بد من منطق ما، يستطيع الإنسان بوساطته أنْ يكون خيّراً أو شريراً، بحسب اختياره، **كذلك هي الشخصية الروائية يجب أنْ تمتلك هذه الحرية، وإلا كان على المؤلف أنْ يبدع شخصياته على صورته ومثاله**[٢٢]، وعندئذ يقع في شر أعماله عندما يسلب الآخرين حريتهم، فتفقد الرواية قدرتها على الاقناع، وعموما فإنَّ الشخصية الروائية القوية تتمرد على مبدعها، لأن لها منطقها الخاص، أليس كذلك؟ وهذا المنطق هو سر امتياز روائي عن آخر. لذا كانت الرواية عالم خاضع للقياس. سواء كانت واقعية، أم سحرية، أم واقعية سحرية. حتى الخرافة التي يقال بأنها لا تحفل بالمنطق، **حتى الخرافة تعمل بمنطق الأسباب، فالعنزة الأم تبقر بطن الذئب، لأنه أكل بناتها العنزات السبع** [٢٣]، والذئب لا يقدم على فعلته إلا عندما تتهيأ له أسبابها، من ذهاب العنزة الأم إلى السوق مثلا، وتركها الصغار بلا راعٍ، أو بسبب مخالفة العنزات الصغار لوصايا العنزة الأم.

– **سعيد بنكراد:** نعم، اتفق معكما، ولكن كيف يمكن أنْ نقرأ كلمات "الضمد"، إذا لم نفترض خيانة التعبير، فأنا لم أسمع، ولم أقرأ، إلى هذه اللحظة، رواية لا هي من الخيال ولا من الواقع. لا من الحقائق ولا من الأساطير!!! إنَّ الخيال– أحبتي– هو الطريقة التي نروي بها حدثاً ما، والواقع هو الممول. الخيال هو رؤيا العالم التي تخصنا نحن الذين اخترنا هذه الطريقة أو تلك، والواقع هو الخامة. الخيال هو فضاء الرواية، أما الواقع فهو مفرداتها. الروائي لا يستطيع أنْ يستغني عن الخيال، كما لا يستطيع أنْ يستغني عن الواقع. هل يمكن للإنسان أنْ يطير؟ واقعاً لا، أما روائيا، فذلك ممكن، بأن يصنع لنفسه جناحين، وهذا يعني إنه اختار "منطق الطير"، وعليه أنْ يعمل بهذا المنطق، ويغرد إنْ كان بلبلاً، أما إذا كان ببغا، فعليه أن يترك التغريد لغيره، وإن كان (تغريد الببغا)، أحيانا، ضرورة يقتضيها منطق الرواية الذي يريد أن يحقق مقصدياته عندما يظهر الأشياء على غير ما هي عليه... كل ذلك بشروط، أو منطق يصعب الإمساك به، لأن لكل رواية شروطها ومنطقها.

– **هانز روبرت ياوس:** إذن، فنحن نتحدث عن عقدين: عقد المؤلف والنص، من جهة، وعقد المؤلف والقارئ من جهة أخرى. وقد نضيف عقداً ثالثاً، بين النص والقارئ، إذا كنا من انصار "نظرية التلقي" حيث القارئ له دور كبير في صياغة النص.

Thi Qar Arts Journal

ISSN Print: 2073-6584 | ISSN Online: 2709-796X

vol 36 No.1 Dec. 2021

– **أرنستو ساباتو:** نعم، هو كذلك، بشرط أنْ يلتزم المؤلف ببنوده، التي لم تُدَوَّن بعدُ، والتي يشترط بالقارئ أنْ يكون على علم بها، عبر تتبعها في كتابات النقاد، فضلا عن الروايات نفسها التي ستتكفل بوضع الخطوط العريضة لتلك البنود، وإنْ بطريقة غير مباشرة. فهذا العلم سيعطي للأعمال الروائية قيمتها، لأن كل عمل روائي كبير له بنوده التي لن تتكرر في عمل آخر، لأن **الرواية هي الواقع الذي لم يكن، أو لم يتمكن منْ أنْ يكون**[٢٤]. وإذا حدث ذلك، فهو تقليد قد لا يُعتَد به، والقارئ بعدئذ– وليس كل قارئ– هو الذي سيكشف عن المدى الذي التزام به المؤلف، طالما أنَّ البنود تتغير مع كل عمل روائي.

إذن، فثمة مشكلة، يرى "الضمد" أنه أوقع فيها الروائيين والنقاد، وهو لا يعلم، ربما بسبب جهله بالفن الروائي، ومعلوماته السياحية التي تمر بالأشياء من دون أن تتمعن فيها، أنَّ هذه القضية لا تهم النقاد من قريب أو بعيد. فالناقد لا يحتاج إلى المؤلف ليكتشف ما إذا كانت الأحداث حقيقة أم وهماً، واقعا أم خيالاً. صدقا أم كذباً، لا سيما من (روائي) مبتدئ إنساقَ إلى كتابة الرواية تقليداً لا ابداعاً، مع موضة الكُتّاب الذين انتقلوا من الكتابة الفكرية إلى الكتابة الروائية التي ازدهرت في العراق بعد السقوط المدوي للدكتاتورية. ذلك السقوط الذي كان من سيئاته (عندما تسقط الدكتاتوريات تظهر إلى السطح بعض السيئات الكانت مقموعة) أنه منح الفرصة لغير الروائيين أنْ يصبحوا روائيين، أو يصنفوا أنفسهم في عديده.

ولعلنا سنكتفي بذكر الكاتب "عبد اللطيف الحرز" الذي كتب رواية بعنوان: "من سرق الطماطة أيها الوطن"؟ رواية ستنطبق عليها فرضية "الكتاب يُعرَف من عنوانه" تماما، ذلك أنَّ "الحرز" أراد أنْ ينتقم من بعض رموز العلم والجهاد في عالمنا المعاصر، فحشرهما عنوة في نصه الروائي[٢٥]، الذي كان عبارة عن مقالة طويلة، لا علاقة بين فقراتها، حيث يقفز الراوي من هذه الفقرة إلى تلك، بطريقة المؤلفين القدماء الذين كانوا يقفزون أيضاً، ولكن لأسباب تشويقية، لم يستطع الحرز تحرّيها، لأنه كان مشغولاً بمن يريد الانتقام منه. عموما فإنَّ المشترك بين هؤلاء (الروائيين) أنَّ رواياتهم لا تعرف الفرق بين الأنواع والأجناس، ووظيفة كل منها، أو طريقتها في مقاربة الواقع، وهكذا فقد سرق "الحرز والضمد" الرواية من عالمها الجميل والشفاف، ليدخلاها في عالمهما الإيديولوجي القبيح وغير الشفاف.

Thi Qar Arts Journal

ISSN Print: 2073-6584 | ISSN Online: 2709-796X

vol 36 No.1 Dec. 2021

ثانيا: وهو الأهم، فإنَّ الناقد لا يهمه ما إذا كانت الأحداث وقعت فعلاً أو لم تقع، من بنات ذهن المؤلف، أم من غير بناته، بل المهم عنده الطريقة التي تُسْرَد بها، واللغة التي تصيغها، والتقنيات التي تستخدمها، والمنطق الذي يحكم حركتها، والمرجعية التي تستند إليها، والفلسفة التي تبشر بها... فمزرعة الحيوان لـ . "جورج أورويل"، مثلاً، لم تحدث على الارض، وإنْ كان ما حدث قريب منها، أو نسخة طبق الاصل لها، لذا تستطيع أنْ تستبدل البشر بحيواناتها، وتتخيل أنها حدثت، وستكون الأمور بخير. كذلك هي حكايات "كليلة ودمنة"، لمؤلفها "ابن المقفع"، التي لو شئت أنْ تقول: إنّها واقع، تصدق، وإنْ شئت أنْ تقول: إنّها خيال تصدق، لأن العمل الروائي هو ذلك البرزخ الكائن بين الاثنين، والمستوعب لهما. من هنا، فإنَّ السؤال عن الحدود بين الخيال والواقع ليس هو بالسؤال الساذج، حتى لأولئك الذين امتلأت قلوبهم بالغرور وعقولهم بالإجابات الجاهزة، لأنه سؤال الرواية الكبير، السؤال الذي لم تستطع (رواية) الضمد الإجابة عنه، ربما لأنها لم تستوعبه بعد.

نقول ذلك، لأن "الضمد" رأى أنَّ الإجابة عن أسئلته هي "**التي تحدد المعني وغير المعني بقراءة مدونات الضمير أنا**"[٢٦]. فإذا ما تركنا الصياغة المضطربة لهذه الجملة التي يصنف بها الضمد القرّاء بناءً على قراءتهم لروايته، أو عدمها، فإننا نستطيع أنْ نفهم ما يريد من الأجواء العامة التي دعته لأن يكون روائياً، وكذلك من رغبته في أنْ يعبر عن تجربته العدمية بالطرائق كلها، حتى تلك التي لا يجيدها. لأنَّ المهم، من وجهة نظره، ليس الإجادة في كتابة النص، بل المهم إيصال الرسالة بأي طريق كان. والحديث عن الموهبة، هنا، لا يجدي نفعا، إذ ما فائدة الموهبة التي لا تبشر بقضيتها، ولا تستحيل إلى إيديولوجيا قمعية بوجه أولئك الذين ما زالوا يؤمنون بأن ثمة وحياً أو إلهاً– من وجهة نظر الضمد طبعا. أقول: إذا ما تركنا صياغة "الضمد" المضطربة لهذه الجملة، فإنه يريد أنْ يقول: إنَّ من قرأ روايتي سيجيب عن أسئلتي؛ أما الذي لم يقرأها، فلا يستطيع الإجابة!!! وهو اكتشاف آخر خطير، يمكن أنْ نعده فتحاً مبيناً في عالم القراءة والبحث العلمي، لذا فهو بحاجة إلى اجتماع آخر على غرار الأول، سنكتشف منه أهم ميزة فارقة في مدونات الضمد: أنها كما وصفها كاتبها بالضبط: لا حقيقة ولا وهم، لا خيال ولا واقع، لا صدق ولا كذب، ولا أي شيء !!!

Thi Qar Arts Journal

ISSN Print: 2073-6584 | ISSN Online: 2709-796X

vol 36 No.1 Dec. 2021

الخاتمة

١- ثمة علاقة قوية بين المتن والهامش، تتجلى في كون الثاني مدخلا للأول وتوطئة له، فالعنوان مثلا، مفتاح من مفاتيح النص، لأنه على الاغلب يختصر المتن ويختزله في حدود معينة، والعكس صحيح، إذا ما تعلق الأمر بشرح العتبات وتفصيل مفرداتها.

٢- الرواية الواقعية المحضة تاريخ ووثيقة، والرواية الخيالية المحضة أسطورة وخرافة، أما العمل الروائي الحقيقي، فهو نتاج المزاوجة بين الخيال والواقع، وفقدان أحد هذين الشرطين فقدان للرواية نفسها، بمعنى أنها ستتحول إلى تاريخ، أو أسطورة.

٣- ما السرد الا رؤية للحياة ومعاينة للوجود، وطريقة في التعبير، وكل ذلك مقدمات لتحقيق التواصل، أما أن يستحيل السرد الى وسيلة للثرثرة، والهذيان، وتفريغ العُقَد، فانه سيفتح أبوابه أمام التحليلات النفسية، دون أنْ يبقي شيئا للدراسات التحليلية والمعرفية.

٤- إنَّ السرد لا يعوزه اختيار البناء الفني فقط، ليصنف ضمن الفن الروائي، بل هو بحاجة الى اللغة، والحوار، والحدث، والحبكة، والشخصيات، والزمان، والمكان.. وربما الاهم من ذلك الحاجة الى الرؤية التي يسعى الروائي إلى تجسيدها والتعبير عنها.

٥- بعد السقوط المدوي للديكتاتورية شهد العراق طفرة روائية غير مسبوقة، ولا شك أنَّ كل طفرة روائية المفروض أنْ يصحبها طفرة نقدية، ولكن ذلك لم يحصل، لأن النقد لا يتعلق بالعاطفة أو الخيال، بل بالفكر، والقابلية على التحليل، والتفسير، والتأويل، والتعليل، التقويم، وتلك قضية لا يسطيعها أيٌّ كان، أما الابداع، فلا يتطلب أي شيء من ذلك، طبعا من وجهة نظر أولئك الذين يرون أنَّ بمقدورهم أنْ يكتبوا أي شيء، فاختصاصهم الفكري لن يمنعهم من أنْ يكتبوا رواية مثلا، فضلا عن أنَّ العراقيين كلهم لديهم قصص مع الدكتاتورية، أو مع

Thi Qar Arts Journal

ISSN Print: 2073-6584 | ISSN Online: 2709-796X

vol 36 No.1 Dec. 2021

بعضهم، لأن الدكتاتوريات تشغل الناس ببعضهم، لذا فقد رأى أكثرهم أنْ يدوِّن هذه القصص، ويظهرها إلى الوجود، وإنْ هو لم يمتلك المؤهلات التي تمكنه من ذلك! لهذا ظهر في العراق العديد من الروائيين الطفيليين وعديمي الموهبة، الذين لا يعرفون الفرق بين الانواع والاجناس، ووظيفتها، والطريقة التي تقارب بها الواقع، لذا فليس غريبا أنْ نرى هذا الطفح الجلدي، لا سيما مع انعدام الرقابة، وسيادة الديمقراطية في نسختها المشوهة، التي تمنح الناس الحرية في أنْ يقولوا ما يشاؤون، وبالطريقة التي يشاؤون، من دون مراجعة، أو رقابة، لا أقول مؤسساتية، بل ذاتية، حيث المرء هو الرقيب على نفسه وكلماته.

الهوامش

١- ينظر: دير الملاك، دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر.

٢- ينظر: عتبات الكتابة في الرواية العربية: ٤٣

٣- عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص): ١٥

٤- عتبات الكتابة في الرواية العربية: ٢٧

٥- حفريات المعرفة: ٢٣

٦- ينظر: مدونات الضمير أنا: ٣٩

٧- ينظر: مدونات الضمير أنا: ٥١

٨- هتك الأسرار: ١١، ١٢.

٩- رسائل إلى روائي شاب: ٦١

١٠- ينظر: "هتك الأسرار": ص١٥، ٣٦، ٦١.

١١- ينظر: التفكيك والتلقي بين النظرية والممارسة: ٦٤

١٢- ينظر: ما وراء النص: ٢٦٤، ٢٦٥.

١٣- مدونات الضمير أنا: ١٨، ٢٠

١٤- الرواية البوليفونية، الحوارية، أو تعدد الأصوات: رواية تفسر الواقع حسب وجهات النظر، فعبر تعدد الشخصيات، والحوارات التي تدور بينها تطرح مختلف وجهات النظر والرؤى الأيديولوجية، لذاك فهي رواية تعددية تأخذ منحى ديمقراطي في طرح الأفكار، وتتحرر من السلطة التي كان يفرضها الراوي سابقا، وتبتعد عن المنظور الأحادي في الأسلوب، واللغة، ومستوى الوعي.. ولعل دون كيشوت، والاخوة كرامازوف، وميرامار أمثلة ناجحة لهذا النوع من الروايات (ينظر: معجم السرديات: ١٠١- ١٠٥).

Thi Qar Arts Journal

ISSN Print: 2073-6584 | ISSN Online: 2709-796X

vol 36 No.1 Dec. 2021

١٥- مدونات الضمير أنا: ٩٥

١٦- ينظر: المصدر نفسه: ٩٥- ٩٦

١٧- الهذيان يكاد يكون صفة مشتركة بين كتاب الضمد وروايته، ينظر: هتك الاسرار: ٥.

١٨- ينظر: مدونات الضمير أنا (الغلاف).

١٩- جواهر البلاغة في المعاني والبديع والبيان: ٢٣٤

٢٠- ينظر: السرد الروائي وتجربة المعنى: ١٤.

٢١- ينظر: مدونات الضمير أنا: (الغلاف).

٢٢- ينظر: كيف حملت القلم: ١١٩.

٢٣- ينظر: قراءات في الثقافة والتأويل والعرفان: ١٨.

٢٤- ينظر: إرنستو ساباتو بين الحرف والدم: ١٦٦.

٢٥- ينظر: من الذي سرق الطماطة: ٢٧، ٢٩، ٣٦، ٤١، ٥٣.

٢٦- مدونات الضمير أنا (الغلاف)

المصادر والمراجع

- إرنستو ساباتو بين الحرف والدم (حوار)، تر: عبد السلام عقيل، دار المدى، سورية، ط١- ٢٠٠٣.
- التفكيك والتلقي بين النظرية والممارسة: علي حسن هذيلي، دار سطور- بغداد، ط١- ٢٠١٨.
- جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، اعتنت به: نجوى أنيس ضو، دار إحياء التراث العربي- بيروت.
- حفريات المعرفة، ميشال فوكو، تر: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي- بيروت، ط٣- ٢٠٠٥.
- دير الملاك، دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر: د. محسن اطيمش. دار الشؤون الثقافية العامة- العراق، بغداد، الطبعة الثانية- ١٩٨٦.
- رسائل إلى روائي شاب، ماريو بارغاس يوسا، تر: صالح علماني، المدى- سورية، ط٢- ٢٠١٠.
- السرد الروائي وتجربة المعنى، سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي- بيروت، ط١- ٢٠٠٨.
- عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص)، عبد الحق بلعابد، منشورات الاختلاف، والدار العربية للعلوم، ناشرون- الجزائر، بيروت، ط١- ٢٠٠٨.
- عتبات الكتابة في الرواية العربية، د. عبد الملك أشبهون، دار الحوار- سورية، ط١- ٢٠٠٩.
- قراءات في الثقافة والتأويل والعرفان: علي حسن هذيلي، مكتب الياسر- ميسان، ط١- ٢٠٠٨.

Thi Qar Arts Journal

ISSN Print: 2073-6584 | ISSN Online: 2709-796X

vol 36 No.1 Dec. 2021

- كيف حملت القلم، حنا مينه، منشورات دار الآداب– بيروت، ط١– ١٩٨٦.
- ما وراء النص: د. ماهر شفيق فريد، الدار المصرية اللبنانية– القاهرة، ط١– ٢٠١٦.
- مدونات الضمير أنا، سعدون محسن الضمد، دار عدنان– بغداد، ط١– ٢٠١٣.
- معجم السرديات: مجموعة مؤلفين، دور: محمد علي، والفارابي، والانتشار العربي، ط١– ٢٠١٠
- من الذي سرق الطماطة أيها الوطن: عبد اللطيف الحرز، دار الفارابي– بيروت، ط١– ٢٠٠٩
- هتك الأسرار، سعدون محسن الضمد، دار الانتشار العربي– بيروت– ٢٠١١.